

المجلد 09 / العدد 02 / ديسمبر (2025)، ص.ص. 464-473

مسارات تأويل المجازات الثقافية: قراءة نقدية

Pathways for Interpreting Cultural Metaphors: A Critical Reading

د. ليندة كدير

linda.kedir@ummtto.dz

جامعة مولود معمري تيزي وزو

مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري

(الجزائر)

تاريخ النشر: 2025/12/02

تاريخ القبول: 2025/11/11

تاريخ الاستلام: 2025/07/03

ملخص:

لا يمكن الحديث عن تفكيك النسق الثقافي في النص الأدبي دون تأويل المجازات البلاغية التي تؤثثه وتبينه لتجعل أنساقه الثقافية والمعرفية في مأمن من أي عملية تفكيكية لعلاماته السيميائية؛ التي تتميز ببلاغة مجازية صعبة الفهم، ومن ثم يأتي فهم المجاز البلاغي في النص - من خلال تأويله - سابقا لعملية تفكيك علاماته اللغوية وغير اللغوية التي تتساند داخله بلاغيا، ولهذا فإن فهم مسارات عبور المجاز إلى الثقافة واكتسابه أبعادا جديدة يحتاج قراءة هيرمينوطيقية متساندة مع السيميائيات التي تؤمن بجدوى التأويل في خلخلة أنساق النصوص والخطابات الأدبية وغير الأدبية.

كلمات مفتاحية: التأويل، السيميائيات، الهيرمينوطيقا، التركيب، الفهم، النسق

Abstract:

It's impossible to discuss the deconstruction of cultural systems in a literary text without interpreting the rhetorical metaphors that furnish and build it. These metaphors safeguard its cultural and cognitive systems from any deconstructive process of its semiotic signs, which are characterized by a rhetorically complex and difficult-to-understand figurative language. Therefore, understanding rhetorical metaphor in the text—through its interpretation—precedes the deconstruction of its linguistic and non-linguistic signs, which are rhetorically intertwined within narrative and poetic texts. For this reason, comprehending the pathways of metaphor's entry into culture and its acquisition of new dimensions requires a hermeneutic reading

Keywords: Interpretation, Semiotics, Hermeneutics, Structure, Understanding, System

تمهيد:

إنّ عملية تأويل المجازات البلاغية لا تقتضي الاستغناء عن التفسيرات البلاغية لظواهر الخطاب، وإثبات الانطلاق منها لفهم المضمير المجازي فيها الذي يمكن أن يتأسس داخل الخطاب الواضح لكن بتقنيات لغوية ومجازية مختلفة عن تلك التي تكون في الخطاب الغامض؛ فـ "القضية مرتبطة بقوة الكثافة ودرجة الوضوح التي تتحدد بضرورة التفريق بين الكلمات متعددة المعاني التي حازت على الخاصية المجازية عن طريق الوضع، تلك الدلالة المجازية

التي لا يمكنها أن تكون كذلك إلا بالاستعمال¹؛ فالاستعمال هو الذي يعمق سمة المجازية في الخطاب، ويزيد من درجات الغموض أو الوضوح، ولهذا فإن الوضع والاستعمال ثنائية تداولية في تأويل المجازات داخل الخطاب، فللسياق التداولي أثرٌ في مقصدية المجاز البلاغي، وخصوصا الكناية التي تمتلك احتمالين يحدد السياق أحدهما وأسبقيته عن الآخر.

تظهر المقاربة التداولية بآلياتها التأويلية لتكون مفتاحاً للوصول للنسق الثقافي المخوء داخل الخطاب، وضمن علامات لغوية ذات درجة بلاغية عالية، ولهذا فإن الاستعانة بالمقولات التداولية في فهم الخطاب السردى طريقاً لخلخلة النسق الثقافي والمعرفي والاجتماعي المضمر إذ تراهن التداولية إذن على "مقاربة المعنى أو الدلالة، ولكن ليس المعنى الحرفي المباشر الذي تؤسسه الجملة من خلال العلاقات التركيبية والدلالة التي تقدمها الألفاظ، بل تراهن على المعنى الضمني أو الرسالة المتضمنة التي يتضمنها الملفوظ دون أن يشير إليها مباشرة، وهي رسالة يؤسسها المتكلم عبر مجموعة من المؤشرات يستقبلها المتلقي في إطار نسق تفاعلي يحكمه ميثاق تواصل يضمن مدّ الجسور بين المرسل والمتلقي"²؛ لكن الذات المتكلمة في الخطاب السردى يمكن أن تكسر ذلك الميثاق بمضمرات الخطاب التي تسكن في المجاز، فتستعصي على القراء الذين لا يمتلكون مهارة تأويلية عالية.

1- في تأويل المجازات الثقافية: المضمر والذهان.

لا يمكن عزل تأويل المجازات والكشف من أنساقها الثقافية في النص الأدبي عن قضية القصدية التي تتشكل من تأويل أجزاء الخطاب الأدبي (الأفعال الكلامية الجزئية) التي تشكل مقصديات جزئية تجتمع في المقصدية العامة التي بدورها تبلور النسق الثقافي المضمر والمضاد لأن المضمر يسكن المجاز في حالات تداولية معينة، لهذا من غير الممكن تجاوز مسألة القصدية -على الرغم من شيوع مفاهيم التأويل الحر في مباحث النقد الثقافي- لأنه دون فهم المقصديات الصغرى للأجزاء الخطاب لا يمكن فهم سيورة النسق الثقافي المضمر الذي يختل مجازياً، ومن ثم فالقصدية آلية مركزية ولهذا، تُطرح مسألة القصدية، بشكل خاص، في حالة أفعال الكلام غير المباشرة. لتأمل، مثلاً، الاستعارات والمجاز والتورية أو السخرية التي لها فائدة كبرى في الخطاب الأدبي. فحسب جون سورل ينبغي الحفاظ على مسافة واضحة بين المعنى الحرفي للجملة وبين ما يريد المتكلم قوله عندما يتلفظ بجملة محددة، أي عندما يوجد فعل كلام، لأن معنى التلفظ يمكن أن يتعد كثيرا عن المعنى الحرفي³.

لهذا، فإن تأويل خطاب شخصية روائية يجب مراعاة سياق التلفظ داخل الرواية فبعض خطابات الشخصيات تعتمد الخطاب / الحوار المضمر - عبر ملفوظات مجازية أو ذات سياق مجازي- الذي يشكل جزءاً من النسق الثقافي للنص الروائي.

وقد تعرض عبد الله الغذامي إلى هذه الفكرة النقدية بنوع من التسرع، أدى إلى فهم ناقص، في النقد العربي، لقضايا النسق الثقافي وترايطاته المجازية والتداولية مع مفهوم المضمر، ولهذا فإن فهم النسق بوصفه منظومة أفكار مترابطة ثقافياً أو أيديولوجياً، يستلزم فهماً لدور المجاز وسياقاته في حدوث الخطاب المضمر؛ وقد تحدث بول غرايس - دون أن يستفيد منه النقد الثقافي العربي- منذ عام 1957 عن التناقض القائم بين الكلام البين والكلام المضمر، قائلاً: يُقصد من التكلم بشكل يبين أن نتحدث عن أمر ما «to tell something»، في حين يُراد من التحدث بشكل مضمر (أن نوحى لأحد الأشخاص بالتفكير في أمر) «to get someone to think something» ولكن كيف السبيل إلى حمل شخص ما على التفكير في أمر لم يتم التفوه به، ولم يُذكر إطلاقاً في القول؟ أسوة بالمحتويات البينة، برأي أوريوني، تكون المحتويات المضمرة مذكورة في القول بطريقة معينة، ينبغي تحديداً التعريف بها⁴، لهذا يجب اكتشاف طريقة الإضمار ثم فهم الفكرة المضمرة، ثم التساؤل هل هذه الفكرة المضمرة تشكل نسقاً مترابطاً أم شذرة مضمرة خارجة عن النسق العام؟

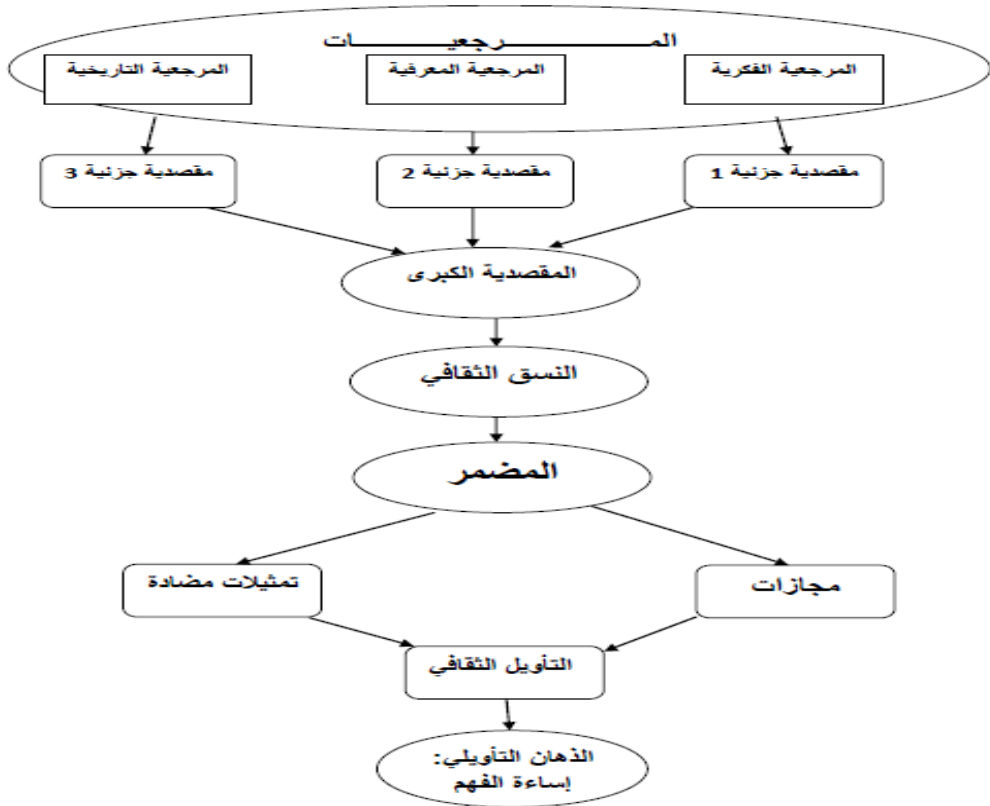
النسق الثقافي المضرر يسكن المجاز، وهذا يقترب من قضية المقصدية التي تسكن أجزاء الخطاب، ثم تأتي حكومة البلاغة والمجاز - حسب عبد الله الغدائي - كي ترسخ النسق وتدعم المقصدية وتزينها مجازيا للمتلقى الذي يجب أن يفهم المجاز تداولياً؛ من أجل فهم مضمره، قبل أن يحاول تشريحه تفكيكياً، فالمقاربة المنهجية هنا متحولة حسب من يثبت النسق (المتكلم) ومن يقوم بتفكيكه بعد فهمه (المتلقي التفكيكي) فلكي تتم عملية التنسيق أي تثبيت النسق حسب الغدائي لا بد من اعتماد آليات بلاغية، "وتربية المدوح وترويضه على الإحساس بأنه محتاج حاجة غريزية للمدح ولبلاغته التي تمنحه قيمة ووجوداً"⁵. ليصبح النسق الثقافي منظومة للأفكار الثقافية التي تؤيد أيديولوجية معينة مصحوباً بالمجاز الذي يحقق الإضرار.

وعليه، فإن فهم قصيدة النص مرحلة الأولى لتفكيكه وزحزحة نسقه الظاهر والمضمر، فعلى سبيل المثال المدح ليس نسقاً مضمرًا بل ظاهراً في خطابات المتنبي لسيف الدولة، والمضمر هو معرفة سبب المدح وأهدافه ومقصدياته وتحديدها؛ فمعرفة المضمر ليست بالعملية التأويلية الاستدلالية البسيطة، لأنها مخوفة بالمخاطر؛ منها الوقوع في الذهان التأويلي.

في تفكيك النسق المضرر واكتشاف آلياته البلاغية لا يمكن استبعاد قضية المقصدية، وإنما هي التي تؤسس لضرورة توخي الحذر كي لا يقع المؤول في ذهان تأويلي، الذي يشبه حالة التأويل اللانهائي؛ لأن البحث من المقصدية النسقية ضد هذا الافتتاح، ولكن ممكن أن يكون الافتتاح آلية تفكيكية، بعد الكشف من المقصدية العامة الخطاب، "لأن المراد بالنسبة للمتلفظ هو قول شيء دون قوله، أما بخصوص المتلقي، فالمقصود هو فك رموز المسكوت عنه أو المقصيات المتضمنة في أفعال اللغة غير المباشرة وتأويله بشكل دقيق؛ بعبارة أخرى، المقصود هو تمييز الصريح عن الضمني"⁶؛ لأن ما هو صريح لا يحتاج إلى تأويل ويمكن تفكيك ثنائياته مباشرة، لكن ما هو مضمر وضمي يصبح ميداناً لاشتمال التأويل السيميوبلاغي ضمن ترابط آليات التداولية بالسميائيات مع البلاغة والنقد الثقافي.

تحمل المجازات معظم الخطابات المضرة التي يصعب تأويل مقصدياتها للكشف من صراع الأنساق فيها من خلال الملفوظات المجازية أو التي في سياق مجاري / تخييلي، وعليه فإن فهم تشكلات اللغة غير المباشرة ومضمراتها والتعرف على قصد خاص هو مظهر التداولية الذي تتأكد أهميته بشكل خاص، في تأويل الأدب وتفكيك أنساقه بعد اكتشافها. واهتماماً ببنية النص وتسلسله الديناميكي، ستطرح المقاربة التداولية، في البدء، سؤالاً لمعرفة ما قصيدة هذه الشخصية أو تلك أثناء قولها وفعلها شيئاً معيناً، قبل أن تطرح سؤال لماذا، أو بأية مقصدية يجعل الكاتب شخصياته تقول ما تقوله وتفعل ما تفعله بالفعل. في هذا الصدد، نستحضر ذهنياً باستمرار إمكانية وجود انزياح هناك بين مقصدية الكاتب وفهم القارئ الذي من المرجح بقوة أن يفهم النص ومقصدية الكاتب على عكس ما كان يتوقعه الكاتب نفسه وهو يتلفظه أو يكتبه⁷؛ فقصدية الشخصيات من خلال حواراتها تساهم في تشكيل النسق الذي قد يخال المؤلف ليذهب عكس ما ينوي إيصاله على القارئ، ليصبح القارئ كاشفاً عن القصدية المضرة التي من الممكن أن الكاتب لم يقصدها ولم يخطط لإنتاجها.

ولفهم الترابطات المفاهيمية بين المرجعية والمقصدية والنسق الثقافي والمضمر البلاغي يمكن الاسترشاد بهذه الخطاطة التي نقترحها:



إنّ المرجعيات الفكرية والاجتماعية والثقافية التي ينطلق منها الأديب هي التي تصنع المقصدية العامة لخطابه؛ ومن ثمّ يتمظهر النسق المضمر مجازيا وباليات أسلوبية متعددة، وكذلك من خلال التمثيلات المضادة لقضايا مختلفة، ولهذا فإنّ القارئ في النقد الثقافي لا يمكنه استبعاد بعض آليات التداولية- كفاهيم الاستلزام والتضمين والأفعال الكلامية غير المباشرة، للوصول إلى المقصدية وآليات تشكيل النسق المضمر، كي لا يقع في الذهان التأويلي الذي ينتج من سيورة تأويلية (السيمويس) بمارسها القراء بشكل مرضي على النص، ولعل الضجة النقية التي صاحبت فوز رواية جزائرية (هوارية) بجائزة وطنية (آسيا جبار)، خير نموذج لهذا الذهان التأويلي الذي يصبح عبثيا- لدى بعض القراء- ومن دون منطلقات نصية وتصورات نقدية واضحة، وإن أخذت نماذج نصية، فإنها تُقرأ تجزيئيا، دون فهم سياق النص السردى وحالات التلفظ، (كاستخراج الألفاظ النائية من رواية معينة، والحكم على الرواية من خلالها فقط)، ليصبح القارئ مُنطلقاً من قراءات نقدية أخرى من أجل تقديم حكمه وتأويله الجمالي والذوقي للرواية، فيصير هذا الذهان التأويلي الممارس على بعض النصوص السردية الجريئة بمثابة سيمويس يحقق لانهائية الدلالة وعدم ثبات الحكم النقدي.

إنّ القراءة التداولية للمقصديات تأتي- كمرحلة أولى- للكشف عن النسق المضمر وآلياته المعتمدة كي تتجاوز الذهان التأويلي الذي يصيب بعض القراءات المغرضة، فبداية يجب الإقرار بحق المتلقي بقراءة أفكار المرسل المبطنة وبالكشف من المضمّنات المزروعة في ثنايا أقواله المباشرة وغير المباشرة - المجازية - ولكن يجب أن يتم ذلك ضمن نطاق حدود معينة، فقد يُتهم المتلقي إن تجاوزها بأنه يمعن في الذهان التأويلي الذي يكون إما فادحا أو عرضيا، بحيث يميّز الذهان التأويلي الفادح ببلاغة جاهيرية وبشكله الجماعي كتصرف المناضلين الثوريين الذين يتكفون على التنقيب

في أقوال غريهم اللدود عن الآثار الشائنة التي يتصف بها فعل قول هذه الأقوال، وصولاً إلى حد إغفال البدايات الحرفية في القول، فيؤولون الكلام المجازي وكذلك الحرفي، وإن جاز التعبير، إنهم يعرضون أنفسهم لتهمة تحديد المجازات الإضرارية التي تتناول افتراضاً تداولياً تواصلياً⁸ يجب تأويله كي يتم تحديده براءة.

وللإشارة يطغى الزهان التأويلي على مستوى وسائل التواصل الافتراضية حيث يصبح الجميع نقادا ومتخصصين في النقد الروائي، من خلال فهم عبارات بلاغية معينة فيها خاصا بهم، فيقعون في عريضة تأويلية.

إن تأويل النسق الثقافي للخطاب السردى يمكن أن يُوقع القارئ في اتهامات للروائي بعيدة عن الصحة، فيخلط القارئ بين التخييل والتاريخ مثلاً، كما حدث لصاحب رواية الديوان الاسبرطي؛ عبد الوهاب عيسوي الذي فهمت روايته على أنها تمجيد للتواجد التركي في الجزائر ولهذا، فالقارئ أو الشخص الذي يعاني مرض الزهان التأويلي العرضي معتاداً دائماً أن يُنقب في الخطاب الآخر عن أمر يجرحه، فقد يصل به الأمر إلى حد التشكيك بكل الخطابات قاطبة بما في ذلك خطاباته الخاصة، أو القول بأنها تنقل، لا بل تخفي، غير ما تُجاهر به على غرار المصالح الدنيئة والحبث المغرض، ويُعد الشخص المصاب بالذهان التأويلي العرضي، كونه مستقصياً عن الطبقات ومستكشفاً الفئات ومستغوراً بامتياز، شخصاً مبادئاً بالسليقة حسب أوريكوني، ونستنتج أننا نستخدم في الواقع هذه المبادئ من آلية التوالد الدلالي ذات المستويات التداولية التواصلية اللامتناهية نظرياً التي تشكل دلالة القول الشاملة والتي يتسلسل واحداً من الآخر⁹؛ فسمّة التأويل اللانهائي للمجاز والكلام غير المباشر سمّة مركزية في الزهان التأويلي العرضي، ولكن تجدر الإشارة إلى أن ممارسات الزهان التأويلي غير محصورة في الخطاب المجازي وإنما قد تمتد إلى الخطاب الواضح المباشر، وفي الممارسات التواصلية اليومية.

2- تأويلات المقاربة المقصدية الثقافية

تقدّم المقاربة المقصدية الثقافية بآلياتها التداولية مخرجاً من إمكانية الوقوع بوعي أو بغير وعي في هذا الزهان التأويلي، لكون المقصدية "صفة للحالات العقلية والحوادث التي يتم بها التوجه إلى موضوعات العالم الخارجي وأحواله أو الإشارة إليها..... فتعتبر المعتقدات والرغبات حالات قصدية، بينما لا تُعدّ الانفعالات والبهجة والقلق غير المبرر حالات قصدية"¹⁰، وبالتالي يجب التفريق بين الحدث القصدي وغير القصدي في الكتابة الروائية، وفي سبيل هذا التفريق يجب أن يعكف القارئ، وهو يقرأ، على القيام بفعل مزدوج يضعه، زمن القراءة، في حالة ترقب الواقع الموضوعي: إنه ينغمس داخل العمل الأدبي من أجل بناء الإيهام المرجعي، ويبحث عن اكتشاف هذا الإيهام بوصفه إيهاماً. ينبغي على رواية ما أن تروي لنا حكاية نؤمن بها، عالماً تخييلياً يظهر لنا على امتداد لحظة القراءة، كما لو كان عالماً واقعياً دون أن يغيب عن ذهن القارئ أن الأمر يتعلق هنا بمظهر لا وجود له إلا في الواقع التخيلي الممثل. وفي ذلك يكمن مبدأ الاحتمال الذي تحدث عنه أرسطو¹¹.

ولهذا فإن الإخلال بهذا الشرط / الميثاق التخيلي القائم على الإيهام بواقع مفترض سيؤدي إلى سوء تأويل لماهية الرواية وأنساقها؛ بوصفها استعارة كبرى قائمة على الاحتمال بوصفه نزعة ذاتية نحو العالم؛ إذ إنّ "العبارات المعبر عنها بصيغ الاحتمال لا تتعلق بالعالم الخارجي، وإنما بموقف المتكلم من العالم ومعتقداته حوله"¹²، وكذلك بتخييلات المتكلم نحو العالم كما هو الحال في الخطاب السردى الذي يلجأ إلى الإيهام المرجعي.

إنّ تأويل النص الأدبي يجب أن يقوم على فهم الإيهام المرجعي الذي مارسه المؤلف، وليس على إسقاط المرجع واقعياً وممارسة تأويلات إستقاطعية مهيمنة للميثاق التخيلي القائم على استعارة العالم الواقعي لصالح عالم تخيلي / إيهامي، وفي هذه الحالة لا نستطيع وصف الرواية إلا بكونها كبرى المستعار منه هو العالم الواقعي والمستعار له هو العالم التخيلي، وهذه الحالة الاستعارية لا يمكن وصفها إلا "باعتبارها تناسباً مكثفاً ناتجاً عن ذوبان عنصر

المستعار منه في المستعار له¹³؛ لكن القارئ يجب أن يفهم هذه الاستعارة وتداخل حدودها، ولا يجب أن يفهمها كخطاب حقيقي غير تخيلي؛ إذ وظيفة الاستعارة الابتعاد عن التقريرية وقيضها؛ أي الإيغال في التخيل؛ "فالاستعارة يمكنها أن تتدخل هنا لتعزيز التناسب"¹⁴ بين المرجع الواقعي وتخيلاته السردية والاستيمائية، لكن يمكن أن تخلق "لغة مليئة بتعدد المعاني والثراء الرمزي"¹⁵ الذي يجعلها غير قابلة للتأويل بسبب درجات غموضها وتداخل الواقعي بالتخيلي.

لا يجب أن يقع القارئ لهذه الاستعارة الكبرى بين العالم الواقعي / المرجعي والعالم المتخيل سرديا، في تأويل المستعار منه (الواقع) بدلا من المستعار له الذي يتجلى في المكان والشخصيات والزمان والأحداث والحوارات التي تكون استعارات جزئية للاستعارة الكبرى التي تساهم في خلق المقصدية والأنساق الثقافية والفكرية التي تأتي مضرة تحتاج إلى تأويل الاستعارات الجزئية- الصغرى، لكن رغم ذلك تبقى، تطرح تأويلا، "إشكالية المرجع الذي يشكل عنصرا أساسيا في المثلث التداولي؛ ما يتحدث عنه الأدب الروائي بالفعل لا يوجد باعتباره موضوعا في هذا العالم، لكن بوصفه فقط إيماما مرجعيا"¹⁶.

إن تعزيز التناسب الذي تمارسه الاستعارات داخل الخطاب الروائي يمكن أن يؤدي إلى خرق الميثاق التخيلي وانتفاء الإيهام المرجعي، ليصبح القارئ مؤولا للمرجع الخارجي ومسقطا له داخل الخطاب الروائي، فتستفكك ثنائية الاستعارة (طرفها) بتداخل حدودها ليصبح فعل التذكر مثلا داخل الرواية مرتبطا بفضائها التخيلي لا الفضاء الواقعي، كي لا يحدث الزهان التأويلي وتبقى الاستعارة الكبرى قائمة.

إن الإيهام المرجعي يساهم المجاز في خلقه والمحافظة عليه، لأنه قادر على تقديم خيال سردي حامل للواقع بطريقة مفارقة وذكية، ويجعل القارئ يمارس فعل التذكر داخل النص لا خارجه، فالتذكر شأنه في ذلك شأن التوقع يستدعيان الخيال معا، إذ توجد بين الخيال الاستعادي للتذكر وبين الخيال المستقبلي للتوقع تلك التسوية التطبيقية للحاضر والتي تكون مقيدة بما قيل و بما سيكون؛ و يستخلص مما سبق أن موضوع التلفظ والتأويل هو العلاقة بين ما قيل، وما سمع - أو ما كُتب وقُرأ- وبين المتواليات المرتقبة وليس هو العلاقة بين الشيء الواجب قوله أو فهمه والتعبير عنه في الواقع¹⁷.

يمكن للمجاز في الرواية أن يؤسس الميثاق التخيلي والاستعارة الروائية الكبرى، ويمكن أن ينتفي دوره ويفكك حدي الاستعارة ويحدث الزهان التأويلي بسبب ضعف المجاز، ومن هذا المنطلق "فالمجاز لها مهمة الحجب، ووضع القناع، والتزيين، والتكرار. وينظر إليها من زاوية طريقتها في قول الكائن. لقد كانت قوة تصور اللغة الواقعي في وضعية مستقرة، بحيث كانت دائما تحدد استنادا إلى طريقتها في تمثيل الواقع - وليس استنادا إلى وظيفتها داخل الأشكال النصية- وفي مقابل مختلف أنواع الواقعية ستطرح مختلف المواقف الأخلاقية إزاء المجازات"¹⁸؛ كما نجى هذه المجازات أنساقا ثقافية واجتماعية، فالمجازات ترتبط فقط بالخطابات الأدبية التخيلية، وإثا نجدها في الخطاب اليومي التواصل.

ولهذا، فإن إدراك كيفية اشتغال المجازات والاستعارات في الخطاب الأدبي يساعد على فهم خطابات اليومي، والعكس صحيح، وهذا ما تجده لدى جون سيول الذي يُعد أول من سعى إلى فهم استعارات الخطاب الأدبي التخيلي بوصفها مجالا لاشتغال التأويل التداولي لمقصدات الخطاب، ليؤكد أنّ مشكل تفسير جريان الاستعارة هو حالة خاصة من المشكل العام المتصل بتفسير التباين بين المعنى الذي يريده المتكلم ومعنى الجملة أو الكلمة أي أنه حالة خاصة من حالات المشكل المتعلق بكيفية جواز أن يقول المرء شيئا وأن يعني شيئا آخر، إذ ينجح في إبلاغ مراده رغم أن المتكلم والسامع كليهما يعرفان أن معاني الكلمات التي قالها المتكلم لا تعتبر عن مراده تعبيرا دقيقا وحرفيا. ومن الأمثلة عن الفجوة بين قول المتكلم ومعنى الجملة الحرفي التهمك والأعمال اللغوية غير المباشرة، والاستعارات. فليس مراد المتكلم في كل واحدة من هاتين الحالتين هو معنى الجملة، ومع ذلك فإنّ ما يقصده يتوقف بطرق شتى على معنى

الجملة¹⁹؛ فالاستعارة حسب سورل هي التي تقول شيئاً غير معناها الحرفي التي تحملها، وهنا تكمن الفجوة التي تستدعي تأويلاً تداولياً قائماً على الاستدلال المنطقي بين القطبين المتضادين في الاستعارة.

إن التصادم بين طرفي الاستعارة هو الذي يجب تحليله من أجل فهم علاقة الاستعارة بالكلام المباشر الذي يجاورها ويتفاعل معها، ولهذا يقوم النشاط التأويلي على أساس فهم التصادم بين طرفي الاستعارة ثم مع ما يجاور سياقها، فيرجع الباحث في فهم الاستعارة إلى الفقرة المجاورة لها، حتى ولو كانت جد مختصرة (يمكن أن تكون كلمة) إلى محيطها، كما يرجعها إلى فقرات أخرى من النص نفسه، ويتم استدعاؤها بإجراءات الماثلة أو التباين و أخيراً، يربط النشاط التأويلي الفقرة بفقرات أخرى منتمة إلى نصوص أخرى مختارة من داخل المرجع، وهي النصوص التي تدخل ضمن متن العمل²⁰، فتأويل الاستعارة تداولياً للكشف من تصادماتها ومقاصدها يرتبط بعلاقة الاستعارة باقي أجزاء الخطاب الاستعارية وغير الاستعارية.

وعليه، فهمة التأويل التداولي الثقافي للاستعارة وحولاتها النسقية والمقاصدية يقوم على تفسير الكيفية التي تختلف بها الأقوال الاستعارية عن الأقوال الحرفية، كان لزاما التوصل إلى تعريف للأقوال الحرفية لاتخاذها منطلقاً، وهذا أمر متعلق بالسياق²¹؛ ولكن في الرواية يكون هذا السياق مستخلصاً من خلال النص وحيثياته التي تقدم حيثيات الثقافة فيه، فالسياق النص الثقافي يمكن أن يغيّر من مجازية الخطاب ودرجات الغموض فيه.

ترتبط درجات الغموض في المجازات وقدرتها على اختزان أنساق ثقافية ومقاصد خفية مرتبطة بالسياق التداولي والثقافي الذي تكون فيه؛ ولهذا يجب أن نسعى لوصف عمليات بناء المعنى والنسق الخفي لنصل في مرحلة الدلالة المعجمية إلى ربط المجازات ببنية المعجم وبحركة السياق الذي يضعها ويغيرها باستمرار. بالفعل، بالنسبة للدلالة التأويلية، يطرح المشكل على هذا الشكل: كيف السبيل إلى وصف المسارات التأويلية التي تكوّن المجاز؟ وما هي القواعد والقيود التي تحدّد هذه المسارات؟ إن السياق هو الذي يُجَدِّثُ المجاز، وليس انزياحه بالنسبة للمعنى الأصلي²²؛ وعلى هذا الأساس فإن عبارة استعارية واحدة قد تأخذ معنى ونسقاً معيناً يختلف عن تلك العبارة المجازية وهي مستعملة في رواية أخرى أو سياق نصي مختلف عن السياق الأول، لأنّ درجة تصادم الحدود في المجازات ترتبط بالسياق النصي وبموامل أخرى؛ ولأنّ لكل عبارة مجازية مسارها التأويلي الخاص بها داخل سياقها النصي، فالانزياح واحد لكن السياق مختلف تدخل فيه سمات الفضاء، وهو من يُكسب العبارة سماً الملازمة لها والتي تكتسبها من خلال المجال السيميائي الكوني (Sémiosphère) الذي تُنتج فيه.

إنّ المجاز يرتبط بالثقافة وفضاءها السيميائي والنصوص الحاملة لها، فالعبارة قد تعتبر مجازية في الثقافة العربية لكنها لا تعبر مجازية في الثقافة الأوروبية مثلاً، أو أنها تترجم بصيغة أخرى كي تكتسب طابع المجازية في الثقافة المترجم إليها، فعند العرب يقال (أثلج قلبه)، وعند الأوروبيين يقال (أدفاً قلبه) كنموذجين عن معنى استعاري مرتبط بالسعادة والرضا الذي يكون لدى العربي بالبرودة، لأنه يعيش في بيئة حارة، عكس الإنسان الغربي الذي يعتبر عن الرضا بالدفء؛ لأن فضاءه بارد، وعليه فإنّ المجازات تختلف حسب الثقافات واللغات والتقاليد، وبعضها يفترض لغات مكتوبة؛ أضف إلى ذلك أن مشروع جماعة مو الذي كان يسعى إلى إعادة التأسيس النسقي للمجازية استناداً إلى الغرائز اللغوية يستحق المتابعة. لأن المجازاتية المؤسسة سيميائياً ستكون لها منحى أنثروبوجيا. وفي تحليل خطاب الأساطير لا يجب أن تُخْتَزَل في بنيات سردية قابلة للوصف كسلسلات حوادث ذلك أن الأساطير منظمة بالتنقلات والميتامورفيزمات والحركة الثقافية والجغرافية التي تضع قيوداً على ما سماه بول ريكور الذكاء السردية. ومن درجة الكلمة إلى درجة النص، تعالج الأساطير نفسها التحولات الموضوعاتية والجدلية والحوارية²³؛ لتصبح الاستعارات أساطير خاصة بثقافات معينة.

إن الثقافة هي التي تصنع الاستعارة والأساليب المجازية، وعليه؛ فإن تأويلها يجب أن يمر على مسار الثقافة وأنساق الثقافة المضمرة داخلها، فالثقافة مفهوم سيميائي تداولي تسكنها ملكة المجازات التي يعيش فيها الإنسان بوصفه "عالقاً في شبكات رمزية نسجها بنفسه حول نفسه، وبالتالي يجب النظر إلى الثقافة على أنها هذه الشبكات التي لا يجب تحليلها تجريبياً، بحثاً عن قانون، بل يجب دراستها تأويلياً للبحث من المعنى فيها"²⁴؛ فكل ثقافة تختزن مجازاتها التي تعبر عن رؤيتها الخاصة للعالم.

إن الاستعارة تسكن الثقافة، فلكل ثقافة استعاراتها ومجازاتها التي تسكنها، وبالتالي فالعودة إلى سيات الثقافة كفيلاً بفهم درجة التصادم ومسارات التأويل، ومن بين الشروط التي تنهم المسارات التأويلية، نميز الشروط الهرمينوطيقية التي تنتمي إلى الخطاب وإلى الجنس وإلى السياق التواصل (الفضاء)، سواء كان السياق مباشراً أو غير مباشر؛ كما نميز أيضاً المؤولين الذين تضبطهم الشروط السالفة الذكر على هذا النحو²⁵، فالشروط الهرمينوطيقية تظل مهيمنة مثلاً عندما نقرأ هذه الكلمات الدارجة (تبحرت) فإن ثقافة البحر من تظهر، وحين نجد كلمة (تغيرت) فهي من ثقافة الصحراء وفضاء الغبار و(تودرت) من الريف (الدوار)؛ لأن الفضاء السيميائي (السيموسفير) هو الذي يصنع هذه المجازات الثقافية.

إن استعارات ومجازات فضاء البحر وثقافة أهله تختلف من ثقافة أهل البادية والصحراء، فكل ثقافة لها رموزها وآليات التفكير الاستدلالي فيها، ولهذا ففهم المجاز ثقافياً هو هدف يتناسب تماماً مع المفهوم السيميائي (Semiotic) للثقافة. إن الثقافة، بما هي شبكة من أنظمة الإشارات (Signs) القابلة للتفسير والتأويل، ليست قوة قاهرة، وليست شيئاً تُعزى إليه سبباً أحداث مجتمعية أو سلوكيات أو مؤسسات اجتماعية أو سيرورات عملية؛ بل هي نسق يمكن من ضمنه إجراء توصيف كثيف قابل للفهم لهذه الأشياء²⁶، فالثقافة تنتج عوالم متشكلة ودوالاً متقابلة من مستويات ثقافية مختلفة.

تصبح الثقافة منتجة للمجازات وآلية تأويلية لها للكشف من المضمرة الذي لا يقدم دلالاته بسهولة للمتلقى داخل تلك الثقافة أما الخارج عنها، فإن كشف المضمرة فيها يصبح مستحيلاً أو محيلاً إلى ذلك الدهان التأويلي؛ الذي يمكن معالجته بالتقيد بالمعاني المعجمية وترابطاتها السيميائية لأن افتتاح المجاز على السيميائيات أمر يفرض نفسه، فالمجاز، أو على الأقل المجاز الأكثر عمومية، ينتمي بالفعل إلى المعجم وإلى النظريات التي تهتم بالمباحث الرئيسية حول جماليات الفنون المرئية (معمار، رسم، نحت، سينما)، بل وحتى الموسيقى²⁷، في حين السيميائيات هي التي تحمي المجازات من الدهان التأويلي، عكس السيميوزيس قد يتسبب في الدهان؛ تحميه عن طريق إدخاله في علاقات وترابطات منطقية تحدد معاملة، كالتشاكل الذي يتأسس على علاقة التناقض المنطقي، ولهذا يجب الخوض في المجاز من منظور سيميوثقافي.

الإحالات:

- 1- آمنة بلعل، سيمياء الأنساق، تشكلات المعنى في الخطابات التراثية، دار النهضة العربية وألفا للوثائق، بيروت وقسنطينة 2013، ص 89.
- 2- ألفي بولان، المقاربة التداولية للأدب، ط.1، ترجمة: محمد تنفو ويلي احمياني، مراجعة وتقديم: سعيد جبار، دار رؤية النشر والتوزيع 2018، ص 07، 08.
- 3- ينظر: المرجع نفسه، ص 50.
- 4- ينظر: كاترين كيربرات - أوركيوني، المضمرة، ترجمة: ريتا خاطر، مراجعة: جوزيف شريم، ط.1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008، ص 40.

- 5- عبد الله الغدائي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط.3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت 2005، ص 153، 154.
- 6- الفتي بولان، المقاربة التداولية للأدب، ص 52.
- 7- ينظر: الفتي بولان، المقاربة التداولية للأدب، ص 53.
- 8- ينظر: كاترين كيربات - أوركيوني، المضمير، ص 620.
- 9- ينظر: المرجع نفسه، ص 621.
- 10- جون سيرل، القصيدة بحث في فلسفة العقل، ترجمة: أحمد الأنصاري، دار الكتاب العربي، ومؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، بيروت، 2009، ص 21.
- 11- ينظر: الفتي بولان، المقاربة التداولية للأدب، ص 78.
- 12- ستيفن تولمين، استعمالات الحجاج، ط.1، ترجمة وتقديم: رشيد راضي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2023، ص 180.
- 13- محمد الولي، الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، ط.1، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، 2022، ص 483.
- 14- شايم بيرلمان ولوسي أولبرخت تنكا، المصنف في الحجاج الخطابية الجديدة، ترجمة: محمد الولي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2023، ص 584
- 15-Mario J. Valdés, Cultural Hermeneutics, Essays after Unamuno and Ricoeur, University of Toronto Press, Canada, 2016, p98.
- 16- الفتي بولان، المقاربة التداولية للأدب، ص 87.
- 17- ينظر: فرانسوا راستي، فنون النص وعلومه، ترجمة: إدريس الخطاب، ط.1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2010، ص 74.
- 18- المرجع نفسه، ص 183.
- 19- ينظر: جون سورل، العبارة والمعنى، دراسات في نظرية الأعمال اللغوية، ص 114.
- 20- ينظر: فرانسوا راستي، فنون النص وعلومه، ص 124.
- 21- ينظر: جون سورل، العبارة والمعنى، دراسات في نظرية الأعمال اللغوية، ص 115، 116.
- 22- ينظر: فرانسوا راستي، فنون النص وعلومه، ص 193.
- 23- ينظر: فرانسوا راستي، فنون النص وعلومه، ص 204.
- 24- كليفوردي غيرتز، تأويل الثقافات، مقالات مختارة، ترجمة: محمد بدوي، مراجعة: الأب بولس وهبة، ط.1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009، ص 82.
- 25- ينظر: فرانسوا راستي، فنون النص وعلومه، ص 197.
- 26- ينظر: كليفوردي غيرتز، تأويل الثقافات، مقالات مختارة، ص 98.
- 27- ينظر: فرانسوا راستي، فنون النص وعلومه، ص 204.

قائمة المصادر والمراجع:

العربية:

- آمنة بلعل، سيمياء الأنساق، تشكيلات المعنى في الخطابات التراثية، دار النهضة العربية وألفا للوثائق، بيروت وقسنطينة 2013.
- جون سورل، العبارة والمعنى، دراسات في نظرية الأعمال اللغوية، ترجمة: شكري السعدي، مراجعة: شكري المبخوت، معهد تونس للترجمة، ط.1، تونس، 2021.
- جون سيرل، القصيدة بحث في فلسفة العقل، ترجمة: أحمد الأنصاري، دار الكتاب العربي، ومؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، بيروت، 2009،
- ستيفن تولمين، استعمالات الحجاج، ط.1، ترجمة وتقديم: رشيد راضي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2023.

- شايم بيرلمان ولوسي أولبرخت تتكا، المصنف في الحجاج الخطابية الجديدة، ترجمة: محمد الولي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2023.
- عبد الله الغدامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط.3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت 2005.
- فرانسوا راستي، فنون النص وعلومه، ترجمة: إدريس الخطاب، ط.1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2010
- النفي بولان، المقاربة التداولية للأدب، ط.1، ترجمة: محمد تنفو وليلى احمياني، مراجعة وتقديم: سعيد جبار، دار رؤية النشر والتوزيع 2018.
- كاترين كيريرات – أوريكيوني، المضمير، ترجمة: ريتا خاطر، مراجعة: جوزيف شريم، ط.1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008
- كليفورد غيرتز، تأويل الثقافات، مقالات مختارة، ترجمة: محمد بدوي، مراجعة: الأب بولس وهبة، ط.1، المنظمة العربية للترجمة بيروت، 2009
- محمد الولي، الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، ط.1، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، 2022.

الإنجليزية:

- Mario J. Valdés, Cultural Hermeneutics, Essays after Unamuno and Ricoeur, University of Toronto Press, Canada, 2016, p98.